

الفصل الثاني عشر

التصوير السمعي كعملية فى إخراج أحلام المكفوفين(*)

- * تمهيد.
- * الأحلام والصور البصرية.
- * هدف البحث.
- * عينة البحث.
- * مادة البحث.
- * نتائج البحث وخلاصته.

(*) هذا عرض أكثر تفصيلا للبحث الذي ألقاه المؤلف فى المؤتمر الدولى الثالث والعشرين لعلم النفس والذي عقد بالمكسيك (أكابولكو - سبتمبر ١٩٨٤).

تمهيد:

الأحلام هي نشاط نفسي يقوم به النائم، حيث يعيش فيها في مجموعات من الهالوس^(١) «المتراصة أو المتفصلة» الحاصلة على معنى أو غير الحاصلة على معنى. وهي نشاط نفسي لا بد منه لكي تخفف النائم من بعض ما يؤرقه من رغبات تتطلب الإشباع أو دوافع تبحث لها عن تنفيس.

الأحلام والصور البصرية:

ولقد درست أحلام المبصرين، وانتهى دارسوها إلى أن الصور البصرية Visual Images تعتبر المكونات الأساسية للحلم، حتى إن الحلم يلجأ في إخراجهِ إلى محاولة جاهدة لترجمة معظم ما يحويه إلى صور بصرية، لدرجة أن الفكرة المجردة التي تصعب ترجمتها إلى صور بصرية نجد الحلم وقد ظلَّ يبحث لها عن صورة بصرية ترجمتها حتى يعثر عليها في أغلب الأحوال. وفي الأحلام التي درسها العلماء ما يؤيد ذلك. وتذكر - كمثال لذلك فقط - حلم حقنة إرما والذي رأت فيه المريضة تفتح فمها بأوسعهِ وكانت هذه

(١) الهالوس Hallucinations مدركات حسية بدون منبهات حسية واقعية موجودة بالعالم الخارجي، كالمجنون الذي يصرخ مستغيثاً من كائن يطارده، بينما في الواقع لا يوجد هذا الكائن الذي يطارده، إنما هالوسه الذاتية هي التي هيأت له هذا الإدراك.

الصورة تترجم فكرة أن تفيض في الحديث^(١)، وكذلك حلم سيلبرير الذي رأى فيه نفسه يسوي قطعة من الخشب، كترجمة لفكرة أن عليه أن يراجع فقرة ناشزة في إحدى مقالاته. هذا ويرى المحللون النفسيون أن عملية تحويل الأفكار في الحلم إلى صور بصرية تعتبر أهم العمليات التي يمر بها إخراج مضمون الحلم الكامن إلى محتوى ظاهر. وفي هذا يقرر فرويد:

«والحيلة الثالثة من حيل إخراج الحلم، هي أهم الحيل جميعاً وأكثرها طرافة من الناحية السيكلوجية. وتتلخص في تحويل الأفكار إلى صور ذهنية بصرية. على أن هذا لا يعني أن كل ما ينطوي عليه الحلم من أفكار مصيره أن يتحول على هذا النحو، فكثير من هذه الأفكار يحتفظ بشكله الأصلي. ويبدو في الحلم الظاهر كما هو. أو في شكل معلومات أو أفكار تتصل بصاحب الحلم. ومن جهة أخرى، فالصور البصرية ليست الشكل الوحيد الذي يمكن أن تتخذها الأفكار، ولو أنها تقوم بالدور الأساسي في صياغة الأحلام. وتعرفون أن هذا الجانب من إخراج الحلم هو أكثر جوانبه ثباتاً، وأقلها عرضة للتغيير. . ومن البدائه أن هذا الأسلوب من أساليب إخراج الحلم ليس عملاً سهلاً بأيّة حال. فإن شئتم أن تكونوا لأنفسكم فكرة عن صعوبتها فحسبكم أن تتصوروا أنكم تقومون بإبدال مقالة سياسية رئيسية في صحيفة ما، بطائفة من الرسوم الإيضاحية، أي تستعوضوا عن الحروف الأبجدية بعلامات تصويرية. .»^(٢).

ولعل من أهم الأسباب التي تجعل للإدراك البصري في الحلم كل هذا الوزن في المقارنة بغيره من بقية الحواس (كالسمع - واللمس - والشم -

(١) سيجموند فرويد: تفسير الأحلام: ترجمة مصطفى صفوان ومراجعة مصطفى زيور. القاهرة. دار المعارف. الطبعة الأولى ص ٣٤٩.

(٢) المرجع السابق ص ٣٥٢.

(٣) سيجموند فرويد: محاضرات تمهيدية في التحليل النفسي ترجمة دكتور أحمد عزت راجح ومراجعة محمد فتحى - القاهرة - الأنجلو المصرية. ص ١٨٨.

والتذوق) أن الأبصار سواء في اليقظة أو الحلم يمتاز عليها جميعاً بالتالي :

١ - إمكانية إدراك عدد هائل من المدركات البصرية إلى جوار بعضها في نفس الوقت ودون أن تختلط معاً مسببة ربكة في التفرقة بينها. فمثلاً تستطيع أن ترى الشارع وما به من عربات قادمة وذهابة، وأشخاص واقفة أو سائرة، وما يقع عليه من مبانٍ ومنشآت، دون أن تختلط هذه المدركات معاً. لكن لو تكلم ثلاثة أفراد في نفس اللحظة فلن تستطيع أن تستمتع إلى كل منهم، بل سوف تختلط المدركات السمعية فلا يمكنك تمييز ما يقوله الأول عن الثاني عن الثالث، على نحو ما يمكن بالنسبة للإدراك البصري. ونفس هذه المقارنة بين الإدراك البصري والسمعي تصدق على المقارنة بين الإدراك البصري وغيره من المدركات الحسية الأخرى.

٢ - اتساع دائرة المدركات البصرية عن غيرها من بقية المدركات. فمثلاً يمكنك رؤية منزل على بعد عدة كيلومترات من مكانك. لكن لا يمكنك أن تسمع صوتاً أو تشم رائحة على بعد نفس المسافة، ناهيك بحاستي اللمس والتذوق اللتين تتطلبان انعدام المسافة بينك وبين الموضوع الذي تدركه، وإلا استحال إدراكك اللمسي أو التذوقي له.

٣ - سرعة الإدراك البصري ومرونة انتقاله من موضوع إلى آخر يعطي ميزة كبيرة للإدراك البصري. فأنت في دقيقة واحدة يمكنك أن تدرك عدداً هائلاً من المدركات البصرية بدقة كافية، في حين لا تستطيع ذلك في بقية المدركات الحسية الأخرى.

٤ - الإدراك البصري أشد أنواع الإدراك دقة ووضوحاً وتفصيلاً. ومن هنا ما هو ملحوظ من إمكانية الشخص أن يستطرد في وصف ما تراه عيناه عن موضوع ما بدقة ووضوح وتفصيل، بعكس الأمر إن طلب منه أن يصف مدركاً سمعياً أو لمسياً أو شمياً أو تذوقياً.

٥ - دقة إدراك الكل أو الجشتلظ في الإدراك البصري وعجز بقية

الحواس عن ذلك: وهذا راجع إلى البنود الأربعة السابقة التي تميز الإدراك البصري في المقارنة بغيره من بقية الحواس. ذلك أن إدراك الكل يتم عن طريق إدراك أجزائه دفعة واحدة، بحيث لو لم يتحقق هذا الشرط، أصبح إدراكنا للكل مشوهاً. فأنت تدرك أن المبنى الذي أمامك عمارة عن طريق رؤيتك لمكوناته الخارجية دفعة واحدة. فأنت لا تدرك الشباك أولاً ثم الشباك ثانياً.. ثم الباب.. ثم الحائط ثم الدور الأول.. ثم اللون.. الخ. في ترتيب من هذا النوع، ثم تخرج من ضمك لهذه الأجزاء معاً إلى أنها تكون كلاً أو جشتلطاً هو العمارة.. ولو أنك اضطرت إلى إدراك كل جزء من أجزاء هذه العمارة على حدة لما استطعت أن تؤلف بين هذه الأجزاء المتناثرة في إدراكها بحيث تدرك منها جشتلطاً صحيحاً يطابق الحقيقة، إنما سوف تدرك على أقصى حد جشتلطاً عبارة عن عمارة مختلفة عن حقيقتها ومشوهة إلى حد بعيد.

ولو تخيلنا إنساناً معصوب العينين وممتطياً لشيء ياتمر بأمره فيطير ويجول به حيث يريد، واستخدم يده في لمس أجزاء هذه العمارة من أسفلها إلى أعلاها ومن يمينها إلى يسارها، ومن أمامها إلى خلفها فإن إدراكه لها على أنها عمارة ذات أبعاد معينة سوف يكون مشوهاً وبعيداً بدرجة كبيرة عن الحقيقة.. ولعل هذا هو السبب في أن الفنون التشكيلية تعتبر الجانب الوحيد من الفنون الذي يفشل فيه المكفوفون بعكس بقية الجوانب الفنية الأخرى كالآداب والموسيقى.

٦- الإدراك البصري يمتاز على غيره من بقية الإدراكات بأنه يتم بسرعة فائقة وبجهد قليل من جانب الشخص. فالإدراك اللمسي أو التذوقي أو السمعي يتطلب وقتاً أطول من الإدراك البصري وجهداً أكثر يبذل من جانب القائم بعملية الإدراك: والمثال السابق في البند (٥) يوضح ذلك بجلاء.

٧- يحتل الإدراك البصري دون غيره من أنواع الإدراكات الحسية المكانة الأكبر والأهم في إدراك المبصر لعالمه الخارجي. فلو قارنا بين نسبة

مدركاتنا البصرية وبين نسبة أي نوع آخر من المدركات الحسية لوجدنا الفارق شاسعاً، حتى إننا في يقظتنا لا نكاد نكف عن استثمار أبصارنا لإدراك العالم المحيط بنا، اللهم إلا في اللحظات القليلة جداً التي نتعمد فيها ذلك، مثل اللحظات التي تسبق النوم، وحتى أثناء ذلك تتزاحم على مخيلتنا صور بصرية هلوسية على نحو ما يحدث في التخييلات أو الأحلام.

خلاصة القول إذن، أن الإدراك البصري يعتبر أكفأ وأوضح وأيسر وسيد أنواع الإدراكات جميعاً وأكثرها مرونة. وأغلب الظن أن هذا هو السبب الذي يجعل الحلم يلجأ إلى التصوير البصري لأفكاره.

هدف البحث:

إذا كان الأمر كذلك بالنسبة لأحلام المبصرين من حيث إن الإدراك البصري يأخذ مكان الصدارة في إدراك المحتوى الظاهر، فكيف يكون الأمر بالنسبة لأحلام المكفوفين؟ هذا هو السؤال الذي نحاول الإجابة عليه في هذا البحث.

عينة البحث:

ينبغي أن نذكر أن هناك ما يعرف بكف البصر الكلبي، وهو الذي لا تكون فيه لدى المكفوف أية قدرة على الإبصار وما يعرف بكف البصر الجزئي، وفيه تكون لدى المكفوف قدرة على الإبصار لكنها ضئيلة إلى حد كبير، إذ لا يكاد يبصر أمامه إلا لبضعة أمتار، كما تكون الرؤية غير واضحة.

ولما كان المصابون بالكف الجزئي لديهم درجة إبصار إلا أنها ضئيلة نسبياً فإنهم يخرجون عن دائرة هدف البحث: إذ يعتبرون امتداداً للمبصرين لكن بدرجة أضعف. ومن حديثي مع بعضهم تبين أنهم يرون صوراً بصرية في أحلامهم كغيرهم من المبصرين، بحيث لا تختلف كيفية إدراك المحتوى الظاهر لأحلامهم عنها لدى المبصرين. وهكذا يتبقى أمامنا كف البصر

الكلبي . وهذا بدوره يمكن أن نقسمه على أساس هدف هذا البحث فقط إلى فئتين :

١ - كف بصر كلي منذ الطفولة المبكرة جداً، أي منذ الشهور الستة الأولى من العمر بحيث نضمن إلى درجة كبيرة أن المكفوف لا يتذكر الصور البصرية أو الألوان .

٢ - كف بصر كلي متأخر نسبياً، بحيث نضمن أن يكون المكفوف متذكراً جيداً للصور البصرية والألوان .

وكف البصر الكلبي، سواء منه ما يندرج في الفئة الأولى أو الثانية، يعتبر نادراً نسبياً في المقارنة بكف البصر الجزئي .

وتتكون عينة هذا البحث من ثلاث حالات كف بصر كلي مبكر جداً (اثنين من الذكور وأثنى واحدة)، ومن حالتين من كف البصر الكلبي المتأخر (من الذكور)، وكانت حالات كف البصر الكلبي المبكر الثلاث مصرية، أما إحدى حالات الكف المتأخرة فكانت سودانية والثانية فلسطينية (من الضفة الغربية) .

مادة البحث :

أما مادة البحث فكانت عبارة عن أحلام رواها لي أفراد عينة البحث حيث قمت بمقابلة أو أكثر لكل منهم على حدة طلبت منهم فيها أن يذكروا لي أهم أحلامهم وأوضحها . وكنت أستبع كل حلم يروى لي - بعد تسجيله كتابة - ببعض الاستفسارات عنه وعن كيفية إدراك محتواه الظاهر وعن المتدايعات التي يستثيرها، والتي رأيت أن تفيد في تحقيق هدف هذا البحث .

وبطبيعة الحال فإن ظروف البحث الخاصة من ضيق وقت المقابلات وصعوبة تكرارها، مع تطوع أفراد العينة وعدم انتظارهم لفائدة تعود عليهم من

سرد أحلامهم وتمداعياتها (على عكس الموقف في جلسات العلاج بالتحليل النفسي) كل ذلك لم يمكن الباحث من الحصول على التمداعيات الكافية عن الأحلام التي اتخذت مادة لهذا البحث. كما لا يخفى على فطنة القارئ أن إمكانية التعرف على أشخاص الحالمة قيد البحث بعض الشيء سواء في تسجيل التمداعيات كاملة أو التعليق بحرية على هذه الأحلام.

أولاً - حالات كف البصر الكلي المبكر

الحالة الأولى

بيانات عامة :

الأبصار : كف كلي منذ الشهور الأولى للميلاد.

المؤهل : ليسانس آداب (لغة عربية).

النوع : ذكر.

السن : ٢٦ سنة تقريباً.

العمل : موجه ثقافي بوزارة الشؤون الاجتماعية.

الجنسية : مصري.

الحلم الأول:

شفت نفسي زي ما أكون موجود في القصر كده (قصر النور وهو مركز لتوجيه وتدريب المكفوفين). وبعدين لقيت نفسي دخلت السويتش: وبعدين سلمت على واحدة، وبعدين افكرت اني عرفتها. وبعدين أخذتها وسحبها وطلعتها وقفنا كده عند الأودة بتاعتنا دي بتاع محو الأمية (حجرة بالقصر يدرّب فيها ويعلم المكفوفون على كتابة وقراءة البرايل) واحنا بتكلم ازيك أو عاملة إيه؟ وكده فطلعت مش هي اللي كنت بافكرها. من صوتها طبعاً عرفت ان مش هي اللي أنا واخذ عليها وقاصدها. فسلمنا على بعض ومشينا واتهيننا على كده وطبعاً زعلت لأنها ما طلعتشي الإنسانة اللي أنا عاوزها.

س ١: ايش عرفك ان اللي دخلته كان السويتش؟

ج ١: المكان: كل تهيئات المكان، نفس الدوشة بتاع المنطقة اللي

على باب القصر. والطبقة اللي يتدربوا على السويتش، والباب اللي مفتوح مش قوي، يعني نص فتحة، واللي ما يبجي الواحد يفتحه يزيق، يعني نفس الشغلانة. والأودة طبعاً أضيع من أي أودة ثانية. ونفس ترتيب الأشياء اللي محطوبة فيها مش زي ترتيب الأودة الثانية مثلاً.

س ٢: يا ترى الحلم ده يفكرك بإيه؟

ج ٢: الواحد لما يفكر في حد، وبعدين يفكر فيه، يبقى عايز يلاقيه في أي مكان يروحه. فلما أمسك أيديه وبعدين ما يطلعش هو يبقى حاجة تضايق.

تعليق:

واضح في هذا الحلم أن الحالم اعتمد أساساً في إدراكاته على حاستي اللمس والسمع وعلى قدرته على الإدراك المكاني أو ما يسمى بالتوجه المكاني Spatial Orientation، فاللمس قد ساهم في تحديد إدراكه أنه قد سلم على إنسان وأن الذي دخله هو حجرة السويتش ببابها المفتوح نصف فتحة وضيق الحجرة ونفس ترتيب الأشياء الموضوعه فيها. كما أن السمع أيضاً قد ساهم في تحديد إدراكه أنه في حجرة السويتش بما يرتبط بها من «دوشة» ومن باب «يزيق» عند فتحه. كما أن السمع هو الذي يرجع إليه الفضل في تصحيح إدراكه للشخص الذي سلم عليه، فبينما ظل يدرك أن هذا الشخص هو الإنسان «اللي واخذ عليها وقاصدها» أتى صوتها ليفضح الحقيقة ويصحح إدراكه فيتبين أن هذا الشخص لم يكن من يقصده. إذن فقد خدعته حاسة اللمس بينما صححت حاسة السمع إدراكه. أما قدرته على الإدراك المكاني (أو التوجه المكاني) فهي التي أرشدته إلى حجرة غرفة السويتش كما أنها عرّفته عليها فهي «أضيع من أي أودة ثانية. ونفس ترتيب الأشياء اللي فيها مش زي ترتيب الأودة الثانية»، كما أنها أيضاً أرشدته إلى طريق الخروج من غرفة السويتش والوقوف عند الأودة بتاع محو الأمية، وجعلته يدرك ذلك.

هذا ويمكن اعتبار التوجه المكاني حاسة مركبة غامضة تجعل الشخص يدرك المكان الذي يوجد فيه وخصائصه و منافذه والطرق المؤدية إليه أو الموصلة منه إلى أماكن أخرى وكيفية وخصائصها. هذا وتلعب ذاكرة الفرد وحواسه المختلفة دوراً أساسياً في تحديد قدرته على التوجه المكاني وتتجلى هذه القدرة لدى المبصر في إمكانه الانتقال من غرفة إلى أخرى في منزله أثناء الإغلاق التام.

الحلم الثاني:

حيث في الحلم ان بقية قزاز درفة الشباك اللي كان سبق انكسر من أودتي وقع، لكن حاجة غريبة أني ما سمعتش للقزاز صوت. وبعدين بدأت أنا ألم القزاز، برضه فجأة لقيت والدتي معايا وأنا في الحقيقة قاعد لوحدي فلقيتها موجودة، وبعدين دخلت الست اللي هي ماجرة لي، اللي أنا ساكن عندها، وهي هتبتدي تتكلم عن كسر القزاز، يعني مثلاً الباقي انكسر وحاجة زي كده، فأمي باه بدأت تلم القزاز وبدأت ترد عليها وقالت لها: أنتم مش مفروض أن تعملوا حسابكم أن واحد كيف هو اللي ساكن توجروا له حاجة متصلحة ما تموروش. هنا أنا باه ما تكلمتش خالص والست ما تكلمتش. وخلص كده ومينا القزاز وسكتنا، وانتهى الحلم كده، وما اتضحني بعد كده إنا كانت أمي تتها معايا أو صلحنا القزاز.

س ١: ايش عرفك ان القزاز وقع؟

ج ١: لقيت حنت قزاز كبيرة على الأرض، وبعدين بافتح الدرقة فما لقيتشي القزاز اللي كان فيها. لكن ما وقعشي وأنا مش موجود. وقع وأنا موجود برضه لكن الغريبة اني ما سمعتلوش صوت.

س ٢: إيه عرفك ان أمك هي اللي موجودة معاك؟

ج ٢: صوتها. وهي ما قاليتليش ازيك وبتاع، يعني زي ما تكون موجودة طبيعي، وقالت لي أوعى انت بس لاحسن تعور نفسك، وقعدت هي تلم القزاز.

س ٣: ايش عرفك ان صاحبة البيت هي اللي دخلت:

ج-٣: باب الأودة انفتح وصوتها معروف لي، واضح يعني. يعني صوتها هي.

س ٤: يا ترى الحلم ده يفكرك بابه؟

ج ٤: أصل البيت عندنا اللي هو أنا ساكن فيه يعني مليون مشاكل كده، تقريباً زي ما تقول أن هم بيزعقوا على طول. دا من الخوف ليزعقوا لي مرة لأن مأجر من الباطن، لا عقد ولا بتاع. وبعدين كوني قاعد لواحدي فأحساسي بلزوم وجود أمي معايا هو اللي خلّاني أتصور أن أمي موجودة معايا في الموقف ده بالذات وخصوصاً أنها قالت لي أنها هاتجيني قريب (في الواقع).

س ٥: طيب القزاز اللي انكسر يفكرك بابه؟

ج ٥: يعني بيتها لي أني واحد متوقع أن يختلف مع الناس اللي هو ساكن وياهم وفي نفس الوقت يحتاج أنه ما يكونش لواحد. يعني القزاز مش إلا مسألة سطحية يمكن كانت تكون أي حاجة. الحقيقة الشباك اللي انكسر منه القزاز ده كان مشروخ أصلاً وبعدين جيت أنا مرة بفتح الدرفة راح واقع من عند الشرخ، يعني تقريباً وقعت نص الدرفة كده، وبدأت أنا. في الحقيقة - لميت القزاز اللي انتطور في الأودة، فالمتموش كله، دخلت بآه صاحبة البيت - في الحقيقة - وجابت هي المقشة ولمت القزاز وما قالتش حاجة. بعديها بآه ببيجي شهر، لما قلت لها هادور على سكن فقالت لي طيب مفيش مانع بس الفكرة أن قزاز الشباك انكسر وعايزين نصلحه، فقلت لها: لا هو كان مشروخ من الأول، وفي أي قفلة أو فتحة كان ممكن ينكسر منك أو مني، ففي الحلم حلمت بآه أن نص القزاز اللي كان فاضل هو اللي وقع.

س ٦: والدك عايش ووالدتك؟

ج ٦: أيوه الحمد لله الإثنين موجودين.

تعليق :

في هذا الحلم يتضح اعتماد الحالم على نفس الحاستين اللتين اعتمد عليهما في إدراك محتوى الحلم السابق . وهما حاستي السمع واللمس . فلقد أدرك كسر الزجاج عن طريق ملامسته لقطع الزجاج في أرض الحجر، وعدم ملامسته للزجاج الذي كان موجوداً بالشباك أثناء قيامه بفتح الشباك . كما أنه أدرك أمه وصاحبة البيت عن طريق سماعه لصوت كل منهما . ولو قارنا بين أهمية كل من حاستي اللمس والسمع في إدراك محتوى الحلم لتبين لنا تعادلها تقريباً إلا أن دهشة الحالم التي عبر عنها تلقائياً نتيجة إحساسه بكسر الزجاج دون أن يسمع له صوتاً يوحي لنا بأنه كان يتوقع الإحساس بكسر الزجاج عن طريق صوت كسره أساساً، بحيث تصبح لحاسة السمع هنا الدور الأساسي في إدراك كسر الزجاج . وأغلب الظن أن لاختفاء صوت الزجاج في هذا الحلم دلالة تعمدها الحلم، وأن هذا قلب لما كان ينبغي أن يكون عليه الموقف حقيقة من إحساس بكسر الزجاج عن طريق صوت الكسر نفسه، بدليل مبادرة الحالم التلقائية إلى تسجيل دهشته لذلك . وهذا أيضاً يؤكد سيادة الدور الذي يقوم به السمع في إدراك الكيف لمحتوى الحلم عامة .

الحلم الثالث :

أنا واقف أنا ومشرف معانا شوية عيال من اللي بترعاهم المؤسسة . فالمشرف طلع ولد اللي هو كان منهم في سرقة جنيه، وحاول يقرره، فالولد ما قالش إن هو سرق الجنيه وخياه فين، فالمشرف شاور له بطلع بره، يعني خلاص اطلع بره . بعته يملا حاجة تقريباً، فيه ولد ملازمي على طول، يعني بأخليه أنا ماشي معايا على طول . قلت له روح وراءه بحيث ما تخليهش يشوفك، وبص شوفه هايصص على أماكن إيه وهو ماشي وبعدين تعالى قول لي . راح فعلاً الولد ورجع قال إن هو بص تحت السلم بتاع المطبخ وعند سلم الإدارة، وكده، فقلت له طيب روح في الأماكن دي من غير ما تخليه يشوفك . هو الولد اللي أنا بقول له روح دور ده لسه ما مشيش، فأنا قلت له : استنى أنا جاي معاك . وبعدين رحت معاه . دور هو وأنا واقف معاه وهو بيدور فيقول لي : مش لاقى حاجة، فأنا بنفسي اللي رحت تحت السلم وثلث حاجة كده كانت مغطية زبالة محطوطة تحت

السلم، والحاجة اللي كانت مغطية الزبالة دي ذي ما تقول باب عشة فراخ فيه السلك وحاجات زي كده، وقلت للولد بصر هنا نصص فعلاً لقي الجنيه.

س ١: ايش عرفك انك واقف مع مشرف المؤسسة؟

ج ١: الراجل ده دائماً باروح أقعد معاه في الأودة، وباعتباري الرائد الديني فبنحل مع بعض مشاكل العيال وحاجات زي كده. فأودته صورتها في دماغني معروفة لما بأدخلها. وصوته هو، ويرضه لمة عيال معينين في الأودة كده. ده اللي خلاني أحس بأن ده فلان المشرف.

س ٢: ايش عرفك بأنه طلع الولد اللي متهم في سرقة الجنيه؟

ج ٢: هو ماشورلوش، لكنه قال له اطلع يا بني بره، املاً الحاجة دي ماء، والولد هو البنشي بتاع الأودة بتاعته.

س ٣: ايش عرفك ان الحتة اللي دورت فيها كانت تحت السلم؟

ج ٣: دا معروف من أنني متعود عليه ودايس المكان. وبعدين الولد معايا المبصر اللي هو ملازمي ده قال لي تعال نشوف سلم المطبخ.

س ٤: يا ترى الحلم ده يفكرك بيايه؟

ج ٤: من انعكاسات الشغل ومشاكله اللي الواحد يبقى عايش فيها طوال اليوم. وبعدين إحساس المشرفين أنني أنا قريب جداً من الأولاد، فده بيخليني نحط عندي هدف معين هو أنني أنا الوحيد اللي أقدر أخلي الولد يعترف ويجيب الجنيه، عشان كده أول ما لقيت الجنيه، خلاص الحلم خالص، فهو هدفي كان إن الواحد باعتباره مسؤول عن الأخلاق وحاجة زي كده، يبقى السرقة أنا اللي أبطلها، وكده يعني.

س ٥: هو فيه في الحقيقة سرقة جنيه دي الوقتي عندكم في المؤسسة؟

ج ٥: أيوه: حصلت قبل الحلم ده بأسبوع أو كده. الحكيمة كانت سابت الشنطة بتاعتها في العيادة، وبعدين دخل الولد ده هو وولد ثاني،

فتمتهم في أن الجنيه اتسرق منهم. وحاولوا كثير يقرروهم وكده، وما جابوش نتيجة يعني والجنيه مظهرش.

س ٦: هل هم في واقع الأمر طلبوا مساعدتك؟

ج ٦: لا. لكن أنا من نفسي حسيت بمسؤوليتي كرائد ديني في المؤسسة، وحاولت طبعاً اني أعرف من العيال فما جيتش نتيجة طبعاً.

س ٧: هل دورت بالطريقة اللي بانك لك في الحلم؟

ج ٧: لا.

تعليق:

واضح من هذا الحلم أن الحالم اعتمد في إدراكه لمحتوى الحلم على ثلاث حواس هي السمع واللمس والإبصار، بالإضافة إلى قدرته على التوجه المكاني. فالسمع قد ساهم في إدراكه أن الذي يقف معه هو مشرف المؤسسة كما أنه قد جعله يدرك أن المشرف «طلع الولد اللي متهم في سرقة الجنيه بره» أما اللمس فقد جعله يدرك أن «الزبالة كانت مغطاة بباب عشة فراخ» عن طريق ما يميز الباب من «سلك وحاجات زي كده» لمسها الحالم. أما الإبصار فقد استعاره الحالم (حيث إنه لا يملكه) من الشخص المبصر الذي يرافقه دائماً في المؤسسة التي يعمل بها. فنظر الشخص المبصر كما طلب منه الحالم إلى المكان الذي حدده له فوجد الجنيه. ومن الجدير بالذكر أن هذا الاستخدام لإبصار الغير في إدراك ما بالعالم الخارجي، والذي بدأ في الحلم واضحاً ما هو إلا صورة طبق الأصل لما يحدث مع المكفوفين في حياة اليقظة، حيث يلجأون إلى المبصرين للاستعانة بهم على دقة الإدراك لما يحيط بهم، كما أن إبصار الغير هنا لا يؤدي إلى إدراك بصري بالمعنى الحرفي لدى الحالم، أي بمعنى تآثر مراكز الإبصار لديه من انفعال عضو الإبصار ثم تفسير هذا التأثير وإضفاء معنى عليه متمثلاً في معرفة الجنيه.

على أن هذه النقطة في الحلم تستثير شيئاً من التساؤل عن الدافع

الذي أجبر الحالم على الامتعانة في تحقيق هدفه في العثور على الجنيه بإبصار المبصر المرافق، إذ كان يمكن الحالم أن يعثر على الجنيه عن طريق اللمس (كأن يمد يده في المكان الذي به الجنيه صدفة فتقع يده على الجنيه مباشرة). وقد يكون دافع الحالم إلى استخدام إبصار الغير هنا التعبير عن إحساسه القوي بأهمية الإبصار، وتمنيه لو كان مبصراً.

أما قدرته على التوجيه المكاني فقد جعله يدرك «الحته اللي دور فيها كانت تحت السلم» فهذا معروف لديه من تعوده عليه وكونه «دايس المكان». كما أنه مستعين بهذه القدرة ذهب بنفسه إلى تحت السلم ورفع غطاء كان على «الزبالة» وطلب من الولد المرافق له أن ينظر فيما كان تحت الغطاء.

الحالة الثانية

بيانات عامة:

الإبصار : كف بصر كلي منذ الشهر الأولي للميلاد.

المؤهل : راسب ثانوية عامة.

النوع : ذكر.

السنه : ٢٤ سنة تقريباً.

العمل : يعمل في مطبعة.

الجنسية : مصري.

الحلم الرابع:

حلمت أنني نائم في وسط البيت اللي في البلد. وأن فيه مارد فوقى برجليه رجلين الناحية دي، ورجلين الناحية دي. له أربع رجلين. فأنا ما اعرفشي إنه مارد إلا بعد ما حسست على رجله لفاية فوق، فلقيتها بتعلى لقوق، وكنت طلعت عليها شوية (بإيديه طبعاً)، فخفت، وقمت صاحي.

س ١ : انت عرفت ازاي إن ده مارد؟

جـ ١: لما مسكت رجله لقيتها بتطول. وده كان كلام الناس على العفاريت. يعني كونت موضوع من كلام الناس المحيطين بي.

س ٢: فيه حاجة ثانية حسستك ان ده مارد؟

جـ ٢: أيوه، سمعت له صوت كان غريب على وداني. صوت نهيق زي الحمار، لكن مختلف عنه، وإلا كنت أدركت أنه حمار.

س ٣: فيه حاجة ثانية خلتك تحس انه مارد؟

جـ ٣: لأ، ما أعتقدش.

تعليق:

هذا حلم - على عكس الأحلام الثلاثة للحالة السابقة والتي كانت حديثة لا يزيد تاريخ رؤيتها عن شهر من روايتها للباحث - رآه الراوي قبل حوالي خمس عشرة سنة، حيث مهد له بأنه حلم أثر فيه منذ الصغر وظل عالماً بذاكرته حتى الآن. كما ذكر في متداعياته عنه أن أهله كانوا يتحدثون أمامه في تلك الليلة عن العفاريت ونوادهم معها، وفكرتهم عنها.

وواضح من هذا الحلم أن الحالم اعتمد في إدراكه لمحتواه على حاستي اللمس والسمع، حيث تحسس رجله بيديه فوجدها مرتفعة، وترتفع باستمرار دون أن يبلغ نهايتها (وهذه خاصية للعفريت كما وصفها الآخرون أمامه). كما أن الصوت الذي سمعه «والذي يشبه نهيق الحمير، لكنه مختلف عنه» أكد له أن الذي فوقه ما هو إلا مارد.

الحلم الخامس:

حلمت اني ماشي وبعدين صدمتني عريية إسعاف. وطبعاً حسيت ان الناس اتلّمت حواله. وكان فيه حواله ضجة كبيرة جداً. وبعدين قمت كده لقيت ناس بيخبطوا على ظهري، يعني تقريباً بيجسوا جسمي كده، وفضل السواق يعنفي بكلام كده كان تقريباً بيشتم، ويكلمني كلام فيه غيظ كده.

س ١ : ايش عرفك انها عربية إسعاف؟

ج ١ : أولاً : ساعة ما ضربتني كانت سريعة، يعني ضربة واحدة. وفيه جرس كان بيضرب مع صوت العربية اللي جاية. ولمست العجل اللي كان فيها لقيته كوتش، وقت ما وقعت والعربية جت فوقي فايدي جت في عجلة من العجل فلقيته كوتش ناعم الملمس، بس، قمت مفزوع لأن طبعاً اتعورت زي أي حد ما يتعور.

س ٢ : ايش عرفك انها كانت سريعة؟

ج ٢ : من دفعة الخبطة لأنني لما انخبطت جامد وقعت. فلو حاجة كانت ماشية بيطاء ماكانتش تخبطني جامد.

س ٣ : وايش عرفك ان فيه حواليك ضجة كبيرة؟

ج ٣ : الصوت. كل اعتمادي كان على ودني، لأنني طبعاً ما باشوفش في احلامي.

س ٤ : كان ناس بيخبطوا على ظهرك وإلا واحد يس؟

ج ٤ : لا، أنا ماكنتش في حالة مدرك فيها، يعني ممكن يكون واحد أو مجموعة.

س ٥ : ايش عرفك ان السواق كان متغاض؟

ج ٥ : لأنه الوحيد اللي كان بيزعق ومنترفز والناس كلها زعلانة كده، فهو اللي كان بيقول هاتوديني في داهية، هاتضيعني. فما فيش حد ممكن يقول الكلام ده إلا إذا كان السواق.

تعليق:

هذا الحلم أيضاً رآه الحالم قبل حوالي اثنتي عشرة سنة. وفي متداعياته عنه ذكر أنه في يوم سابق على الحلم وقريب منه، كان يسير مع

والدته في ميدان الحلمية، فوجد تجمهراً من الناس حول حادثة ووصلت
عربة إسعاف. ووقف هو ووالدته مع الناس. وكانت أمه تتكلم عن منظر
الدم، فاستشاط غضباً من وصفها للمنظر وعدم إمكانته رؤيته.

ونلاحظ أن الحالم اعتمد في إدراكه لمحتوى هذا الحلم على ثلاثة
أنواع من الأحاسيس هي: السمع واللمس والضغط، فحاسة السمع ساهمت
في إدراكه أن العربة التي صدمته كانت عربة إسعاف عن طريق جرسها، وفي
إدراكه لتجمع الناس حوله عن طريق أصواتهم وضجيجهم، وفي إدراكه لغيظ
السائق وتعنيفه إياه عن طريق سماعه لشتائم السائق وتوبيخاته المملوءة غيظاً.
وحاسة اللمس أسهمت في إدراكه أن أناساً «تجس» جسمه، وأن العربة التي
صدمته كانت سيارة (وليست عربة كارو مثلاً) إذ أن لمسة العجلة جعلته يدرك
أنها كوتش. أما إسهام الإحساس بالضغط في الإدراك، فقد تمثل في إدراكه
أن العربة كانت مسرعة وذلك من إحساسه بشدة الصدمة، فلو أنها كانت
بطيئة لكانت الصدمة خفيفة، كما تمثل أيضاً إسهام الإحساس بالضغط في
إدراك الحلم أن «ناس بيخبطوا على ظهره».

على أنه مما يستحق الاهتمام هنا هو أن حاسة السمع كانت لها الغلبة
في سيادتها على حاسة اللمس في نصيبها فيما يتعلّق بالإدراك في هذا
الحلم. ولعلّ تقرير الحالم صراحة في عبارته «كل اعتمادي كان على وداني،
طبعاً ماباشوفش في أحلامي» ما يؤيد نتيجة هذه المقارنة، كما أن إقران
الحالم للسمع بالإبصار ووصفه إياه كبديل له، يدل على أن حاسة السمع
للكيف تقوم مقام حاسة الإبصار عند المبصر من حيث أهميتها وجسامه
دورها في عملية الإدراك.

الحلم السادس:

حلمت اني أنا نازل الجامع في وقت الفجر كده ورحت العيضة علشان اتوضأ.
فسمعت صوت حد ماشي حافي. فكانت مفاجأة لي لما مشيت علشان أشوف الشيء اللي
ماشي فكانت مفاجأة لي لأنني لقيته ربنا، فخذني من إيدي ووصلني لغاية الحنيفة.

وطببط عليّ كده بحنان. اتوضيت وبعد ما اتوضبت سألني: مش عاوز حاجة؟ فقلت له
إني عاوز أخش الجنة. فقال: لازم تصلي، فأنا صليت الصبح، وخرجت من الجامع،
فلقيت حد بيضحك علي، أو بيضحك وقتها، لأن ماكانش فيه حد إلا أنا فطبعاً بيضحك
علي، فقمتم مفزوع، طبعاً كان الشيطان.

س ١: ايش عرفك ان الوقت كان الفجر؟

ج ١: كان الكل نائم.

س ٢: ازاي تعرف؟

ج ٢: من الهدوء. ما فيش صوت، ما فيش حركة.

س ٣: فيه حاجة ثانية خلتنك تعرف ان الوقت كان الفجر؟

ج ٣: شكل الجو. إيه اللي يميز الفجر؟ الديكة، الهدوء، مثلاً دي
الوقتي واحنا قاعدين (وكان الوقت ظهراً) فيه عصافير بتزقق وحاجات كده.

س ٤: ايش عرفك ان ده ربنا؟

ج ٤: كان حاجة كبيرة جداً. يعني كل شيء كبير. رجليه عريضة
قوي بحيث إنها بتعمل صوت كبير في المشي.

س ٥: حسست عليها؟

ج ٥: لا. صوت المشية نفسها صوت كبير. يعني أنت تقدر تفرق بين
الطفل الصغير والراجل الكبير في صوت مشيته. وبعدين كونه طببط علي
في حنان ومشاني برفق كده. يعني خذني وصلني للحنفية، ما خلانيش أطس
في حاجة. وخوفي منه وهو بيطببط عليّ خلاني أحس أن ده ربنا.

س ٦: طيب ايش عرفك إن فيه حد بيضحك عليك لما خلصت

صلاة؟

ج ٦: سمعت صوت قوي، وما كانش فيه حد في المكان. صوت

كان يطارديني في أي مكان أمشي فيه لغاية ما خرجت من الجامع.

س ٧: ايش عرفك ان ده الشيطان؟

جـ ٧: ما فيش حاجة ممكن تضحك على الإنسان إلا الشيطان. يعني مين هايضحك؟ ومين هايبتى موجود؟. وبعدين كانوا قابلين لنا إن المدرسة اللي احنا فيها كانت تقريباً مستشفى. فده كان له تأثير في نفس الواحد منا. وفي الوقت ده كنت في المدرسة ورايح أصلي في جامع المدرسة. فكان دائماً الإنسان يتابه خوف شديد من أي حاجة كان بيعملها.

تعليق:

في تمهيده ومتداعياته لهذا الحلم ذكر الحالم أنه رآه في سن الثانية عشرة تقريباً عندما بدأ يتعلم الصلاة ويصلي، ويعرف الجنة والنار. ووقتها كان في مدرسة داخلية بها المسجد الذي ظهر في الحلم.

ومن الواضح أن الحالم اعتمد في إدراكاته لمحتوى هذا الحلم على حاسة السمع وقدرته على الإدراك (أو التوجه) المكاني وعلى الإحساس بالضغط. وكانت السيادة لحاسة السمع بلا منازع فقد أسهمت في إدراكه لوقت الفجر (حيث الهدوء وعدم الحركة)، وفي إدراكه للإله حيث سماعه لصوت «حد ماشي حافي» وسؤاله له «مش عاوز حاجة؟» وقوله له «لازم تصلي»، وفي إدراكه أيضاً للشيطان، حيث سمع ضحكه كما سمع صوتاً قوياً ظل يطارده حتى خرج من الجامع.

ومن الجدير بالذكر أن السمع استخدم هنا للقيام بوظيفة تكاد تكون أساساً من وظائف اللمس للكفيف كبديل لإبصاره المفقود، تلك هي إدراك الحالم للإله على أن «رجليه عريضة قوي» وأنه «كان شيء كبير» من مجرد الصوت الضخم الذي يحدثه في المشي. ولعل المنطق هنا ليس سليماً على إطلاقه، فإن الكثير من الأشياء ذات الحجم الصغير قد ينتج عنها الصوت الضخم. فالحلم هنا استخدم حاسة السمع بدلاً من حاسة اللمس في إدراك مفاهيم يفترض أن اللمس أدق في إدراكها (إذا استبعدنا الإبصار بطبيعة

الحال). وأغلب الظن أننا هنا أمام عملية لتحويل أفكار الحالم إلى صورة سمعية Audile Images كمقابل لعملية تحويل أفكار الحالم لدى المبصرين إلى صورة بصرية Visual images، تلك العملية التي سبق أن ذكرنا أنها إحدى العمليات الأساسية في إخراج أحلام المبصرين وصياغتها. فالحالم هنا عبّر عن قدرة الله وعظمته بقوة الصوت. ولعلّ تعبير هذا الحلم عن الشيطان بـ «حد يبضحك عليّ»، أو يبضحك وقتها»، دليل آخر واضح على عملية التصوير السمعي التي لجأ إليها الحالم لترجم الفكرة الشائعة عن أن الشيطان يوسوس للإنسان ويغويه ويزين له طريق السوء، فاستعار الحالم الترجمة الدارجة لعمل الشيطان هذا بضحكه على الإنسان فإذا بالحالم لا يرى الشيطان يساومه على ترك الصلاة واتباع المعاصي، بل يسمع فقط الضحك العالي للشيطان كتصوير سمعي لهذه الفكرة، فترجم الموقف من عملية ذهنية حسّية سمعية. ولو صدق استنتاجنا هذا فإن معنى ضحك الشيطان هنا وفزع الحالم منه لدرجة استيقاظه، أن الحالم تحدوه رغبة شديدة في دخول الجنة، وأن شرط ذلك - كما أمره الله - هو الصلاة. لكن الشيطان له بالمرصاد، فهو يخشاه أن يغويه عن الصلاة «بضحك عليه» بحيث يفقده أمل دخول الجنة. ومن هنا فإن خوف الحالم من ضحك الشيطان ليس إلا كناية عن خوفه من غواية الشيطان له.

وفي هذا الحلم نلمس تقرير الحالم وتقديره لأهمية الإبصار بشكل غير مباشر في عبارته «خدني من أيدي ووصلني لغاية الحنيفة» و«ماخلانيش اطس في حاجة».

وهناك ملاحظة تستحق الذكر - وإن بدت هامشية بالنسبة لهدف هذا البحث - وهي أن أحلام هذا المكفوف، والتي رواها للباحث، كانت كلها أحلاماً مضى عليها سنوات طويلة - على نحو ما ذكرنا - كما كانت أيضاً من نوع الأحلام التي نطلق عليها «أحلام الهيلة Anxiety Dreams» أو «الكوابيس Nightmares» وهي الأحلام التي تهزنا بما تحتويه من مشاعر الخوف والضييق والألم البالغة.

الحالة الثالثة

الإبصار : كف بصر كلي منذ الشهور الأولى للميلاد.

المؤهل : قراءة وكتابة.

النوع : أنثى .

السن : ٢٧ سنة تقريباً.

العمل : تبحث عن عمل.

الجنسية : مصرية.

الحلم السابع :

حلمت أن بابا مات . وبعدين أنا في الحلم في الأول ما عيطش . وبعدين كل اللي كنت باحس بيه وقتها هو ياترى أنا هاعمل إيه في حياتي بعد كده؟ يا ترى هاعيش إزاي؟ هاعمل إيه بعد كده في حياتي بالنسبة للإقامة، للحياة، معيشتي أنا نفسها؟ وبعدين بصيت لقيت نفسي قلققت وقيت وصحيت . وبعدين لما نمت ثاني حلمت برضه إن هو مات . وفي الوقت ده عيطت كثير، وصحيت مضطربة من النوم . بعدين قلت الحمد لله إن ده كان حلم مش حقيقة .

س ١ : ايش عرفك أن والدك هو اللي مات؟

ج ١ : الناس كانوا بيقولوا في الحلم . وبعدين حد بيقول للثاني البقية في حياتك (فلان - اسم والدها) مات . وحاجات ذي كده .

س ٢ : إيه هي الحواس اللي اعتمدت عليها في معرفة أن أبوكي مات؟

ج ٢ : حاسة السمع . وأصل أنا قبل ما أنام كان فيه واحد ميت قبلها في عمارتنا وبعدين حسيت ان مراته ما اتصرفتش كما يجب، ما فيش ماتم ما فيش استقبال للمدعوين .

س ٣ : وبإيه يفكرك الحلم ده؟

ج ٣ : في الواقع أن بابا عيان . وهو دايماً كثير بيتكلم عن الموت،

ويعدين معاملته لنا، أو لي أنا شخصياً بتحسن فحسيت أن ده قريب من النهاية. فأنا كثير بأفكر في الموضوع ده بدون الحلم.

تعليق:

هذا حلم مزدوج رآته الحاملة في فترتين من نومها فصلت بينهما لحظات من اليقظة وكان ذلك منذ حوالي أسبوعين من روايته للباحث. ويدور محتواه حول فكرتين هما موت الأب ومصيرها بعده. وربما أثر كون الحالة انثى في رفع درجة مقاومتها للإفاضة عن تفاصيل أخرى في الحلم، بدليل مقاومتها لسرد أحلام أخرى غير هذا الحلم بحجة أنها نادراً ما تحلم وإذا حلمت فنادراً ما يظل الحلم عالقاً بذهنها. وهذا الموقف لم يشجع الباحث على الاستمرار في استفساراته عن هذا الحلم.

وعلى كل حال، فإن إدراك الحالة هنا لمحتوى الحلم كان يعتمد أساساً على «حاسة السمع» كنص تعبيرها. «فالناس كانوا يقولوا في الحلم» و«حد يقول للثاني البقية في حياتك. فلان (اسم والدها) مات وحاجات زي كده». كما أن الحواس الأخرى لم تلعب دوراً ملموساً في هذا الحلم، فالدور الأساسي قامت به حاسة السمع فقط.

ثانياً - حالات كف البصر الكلي المتأخر

الحالة الأولى

الإبصار : كف بصر كلي منذ حوالي سبع سنوات وثلاثة أشهر .

المؤهل : دبلوم صناعي (بعد الإعدادية العامة بسنة دراسية) .

النوع : ذكر .

السن : ٢٩ سنة تقريباً .

العمل : كان يعمل يراداً قبل الإصابة بكف البصر والآن يتدرب على

السويتش .

الجنسية : سوداني .

الحلم الثامن :

حلمت أنني تزوجت البنت اللي باحبها وذهبت للخروطوم . وأول قعدة قعدناها كنا في المقرن (منطقة بالخروطوم حيث التقاء أو اقتران النيل الأبيض بالنيل الأزرق)، وكنت شايف النيل الأزرق والنيل الأبيض . وكنت أيضاً بأنظر للجزيرة توتي (جزيرة وسط النيل بالخروطوم) زي ما كنت زمان بأشوف الحاجات دي على الطبيعة . واللي بأحبها دي مصرية بيضاء، مش زيتا سمراء كده .

س ١ : إيش عرفك ان اللي قاعدة معاك هي اللي بتحبها وحتجوزها؟

ج ١ : أنا كنت متعلق بيها هنا في مصر . وفي أثناء الحلم حلمت بأن خلاص الجوازة دي تَمتّ وسافرنا إلى السودان .

س ٢: إيه هي الحواس اللي خلتك عرفت إن اللي قاعدة معاك هي حبيبتك؟

ج ٢: نبرات صوتها جاءت في وداني كان هي نفسها مش حد ثاني .

س ٣: بس نبرات صوتها؟

ج ٣: كنت ورتها قبل كده لواحد مبصر فوصفها لي ، صورتها انطبتت في ذهني على طول كأني مبصر وشايفها .

س ٤: إنت ماشفتهاش أصلاً؟

ج ٤: فعلاً لم أرها لأنني تعرفت عليها السنة اللي فاتت بس .

س ٥: ايش عرفك انك قاعد في المقرن؟

ج ٥: لأنني تخيلت اني في الخرطوم . وأجمل منظر الواحد يراه على الطبيعة هو مقرن النيلين . وهو أجمل منظر في الخرطوم . فهو المكان الوحيد الذي تعلق في ذهني لكي نجلس سوياً وأعرفها على المقرن وجمال الطبيعة وهي مبصرة طبعاً .

س ٦: إيه هي الحواس اللي خلتك عرفت انك قاعد في المقرن؟

ج ٦: أنا راسم منطقة المقرن وواضعها في ذهني . وعرفت بأنني جالس في المقرن لأنني حسيت بجو لطيف جداً، وتيار مياه النيل وتغريد الطيور وسير العربات الذاهبة إلى أم درمان أو الآتية للخرطوم . وكنت شايف بعينه النيل الأزرق وهو مقترن بالنيل الأبيض . وأيضاً كنت أنظر في تأمل على جزيرة توتي وهي في الضفة الأخرى، الضفة الشرقية، وكنت أنظر على البواخر النيلية اللي في النيل . فالحلم ده كان بجد كأنني مبصر فعلاً .

س ٧: اللي جاءت لك في الحلم دي بتفكرك بإيه؟

ج ٧: كانت تفكرني بشيء كنت أتمناه قبل ما أكون كيف، بأني أتجوز واحدة مصرية .

س ٨: وبيايه كمان؟

ج ٨: أنا تعرفت بيها بطريقة الصدفة في ميدان العتبة. كنت ماشي وكنت عاوز أركب تاكسي. فطبعاً عاوز أشوف واحد علشان يوقف لي التاكسي. فمن حسن حظي كانت هي بجواري، وسألتي رايح فين، فأنا عرفتها على المطرح اللي رايح فيه. وسألتي عن اسمي وليه جاي مصر فأنا عرفتها، وبعدين الوقت كان ضيق جداً فأنا أخذت وبها ميعاد آخر. وهي أيضاً بتعمل موظفة في وزارة المالية والاقتصاد في مصر. وفعلاً في اليوم التالي انتظرتني في ميدان العتبة وتقابلنا.

س ٩: يا ترى إيه علاقتك بها دلوقتي؟

ج ٩: هي خطيبي دي لوقتي.

تعليق:

لما كان كف البصر قد أصاب الحالم متأخراً فقط، فإنه لديه خبرة بالصور البصرية Visual Images، وبالتالي سهل عليه استدعاءها أو عملها طالما أن مركز الإبصار في المخ لم يصب بسوء وإنما الذي أصيب هو عضو الإبصار فقط (العين). وفي هذه الحالة يمكنه أن يرى صوراً بصرية تماماً كما يراها المبصر في الحلم. وهذه ظاهرة تماثل ما يعرفه العلم جيداً ويطلق عليه وخذاع المبتور^(١)، فالمقطوع اليد يحس أحياناً بأكال في أطراف أصابعه كأنها موجودة فعلاً.

وبالفعل لعبت حاسة الإبصار دوراً أساسياً في إدراكات محتوى هذا الحلم. ولقد لخص هذه الحقيقة في عبارته «فالحلم ده كان بجد كأنني مبصر فعلاً». وبهذا الخصوص فإن الدور الذي لعبه الإبصار في إدراكات محتوى هذا الحلم لا يكاد يختلف عن دوره في إدراكات محتويات أحلام

(١) دكتور يوسف مراد: مبادئ علم النفس العام: القاهرة - دار المعارف، ١٩٦٦ ص ٦٧.

المبصرين . ومما يلفت النظر أن الحالم لم يعتمد في إدراكه لخطيته في هذا الحلم على حاسة السمع فقط (وهي الحاسة التي لعبت الدور الأساسي الثاني في إدراكات محتوى هذا الحلم)، كما كنا نتوقع حيث إنه لم يرها في حقيقة الأمر، بل أسهمت أيضاً حاسة الإبصار في إدراك الخطية، إذ إن الحالم كون عنها صورة بصرية انطبعت في ذهنه من وصف أحد المبصرين لها. ولقد لُخص هذه الحقيقة في قوله: «كأنني مبصر وشايفها».

ونحن هنا إزاء عملية نجدها أيضاً في أحلام المبصرين وهي ترجمة موضوعات لم تسبق لهم رؤيتها إلى صور بصرية من مجرد سماع وصف لها (كروية الأنبياء في الأحلام). وهذا يدل على مدى سيادة حاسة الأبصار ودورها في الإدراكات بحيث إن هذه الحاسة لا يكاد يسقط دورها إلا في أحلام الحالات التي لم تسبق لها الخبرة بالإبصار، أو سبقت لها هذه الخبرة لكن نسيتهما لأنها كانت مبكرة جداً، أو - كما نتوقع - التي سبقت لها هذه الخبرة لكن تلفت مراكز الإحساس البصري في المنع حتى وإن كان هذا التلفت حديثاً، إذ تكف قدرة الإنسان في هذه الحالة على الإدراك البصري كله، حتى ولو كانت عيناه سليمتين.

خلاصة القول إن عملية التصوير البصري Visualization (كعملية أساسية من عمليات إخراج الحلم عند المبصرين) قد استطاعت أن تقوم بالدور الأساسي في هذا الحلم، بل إنها لم تسمح لحاسة السمع بالانفراد بإدراك الخطية فساهمت في هذا الإدراك عن طريق تصويرها بصرياً حسب وصف أحد المبصرين لها. أما بقية الحواس وعلى الأخص السمع فقد ساهمت أيضاً في إدراكات هذا الحلم، لكن لم يكن دور أي منها بمثل أهمية دور الإبصار على الرغم من أن الحالم مكفوف البصر منذ أكثر من سبع سنوات.

الحلم التاسع:

حلمت أن والدي حي وجالس ويايه، واحنا قاعدين كده في الجنية بتاعة البيت

بتاعتنا، وصورته ونفس شكله في خيالي وفي ذهني، ما فيش أي تغيير خالص. وكنا جالسين وبنلعب مع بعض طاولة. بس. أفكر بعد كده صحيت على طول.

س ١: ايش عرفك ان اللي قاعد معاك ده والدك؟

ج ١: الشيء الوحيد اللي خلاني أعرف ان هو والدي لأن صورته وشكله في ذهني دائماً. كان والدي لما باكون نايم على السرير بيصحيني ويقول لي بدل ما أنت نايم تعالي نلعب طاولة ونتونس (نتسلى عن طريق الدردشة) لأن كان بيحبني شديد، وكثير جداً، علشان كده هو دائماً في خيالي وصورته قدامي على طول. ده السبب اللي خلاني عرفت ان ده والدي.

س ٢: يا ترى إيه الحواس اللي ساعدتك في انك تعرف ان ده والدك؟

ج ٢: الإنسان لما يكون كيف بيعتمد كلي على السمع. لكن أنا كنت في الحلم كأنني مبصر وشايفه. داللي خلاني عرفت أن هو أبويا. وبعدين شكله زي نفس شكله بالضبط.

س ٣: يا ترى فيه حاجة ثانية عرفتك انه أبوك؟

ج ٣: لا ما فيش.

س ٤: الحلم ده بيفكرك بإيه؟

ج ٤: بيفكرني باه بأيام حلوة قضيتها مع والدي قبل ما يموت سنة ١٩٦٨، كنت أنا ملازمة دائماً في البيت، وخارج البيت. ده هو السبب، بس.

تعليق:

رأى الحالم هذا الحلم قبل روايته للباحث بحوالي أسبوع. وفي هذا الحلم - كما في الحلم السابق تماماً - تلعب حاسة الإبصار الدور الأساسي

في إدراك محتوى الحلم، بل إنَّ الحالم يبادر تلقائياً إلى إنكار دور السمع في إدراكات هذا الحلم مع تقرير دور الإبصار، إذ يقول: «الإنسان لما يكون كفيف يعتمد كلياً على السمع، لكن أنا كنت في الحلم كأني مبصر وشافيه»: وهكذا نجد أنَّ هذا الحلم يشبه في كفيات إدراكه أحلام المبصرين تماماً.

ونلاحظ أنَّ هذا الحلم كسابقه، يؤكدان لنا أنَّ الإدراك البصري لا يتنازل عن دوره السيادي والأساسي في إدراكات الحلم إلا إذا استحال على الحالم إمكانية التصور أو التصوير البصري. فبالرغم من أنَّ الحالم مكفوف البصر كفاً تاماً، إلا أنَّ إمكاناته لا تزال تساعد على التصور والتصوير البصري، حيث إن مراكز الحس البصري في المخ لا زالت سليمة، كما أنَّ خبرته بالمدركات البصرية لا زالت حديثة نسبياً لم تمح بعد من ذاكرته.

الحالة الثانية

الإبصار : كف بصر كلي منذ حوالي سنتين.

المؤهل : ثانوية تجارية.

النوع : ذكر.

السن : ٢٢,٥ سنة تقريباً.

العمل : لم يعمل بعد لأنَّ إصابته كانت قبل ظهور نتيجة مؤهله مباشرة ويتدرب بالمركز النموذجي لتوجيه المكفوفين.

الجنسية : فلسطيني من الضفة الغربية (الخليل).

الحلم العاشر:

كنت واقف في حته كده ما أعرفش فين بالضبط يعني، كنت أنا وبابا وجددي فجأة كده لقينا نفسنا وسط جماعة، ما أعرفش مش فاكتر بأقول لواحد منهم إيه، طلع مطواه وضربني هنا (مشيراً إلى فزاعه الشمال) بضميرتين. ويعدين ضرب بابا في إيدته الشمال

كده على طول (مشيراً إلى جزء من الذراع)، حاجة بتاع عشرة متيمتر. فنزل دم لكن ماسلش، زي بقت حواليتها بس، جرحى وجرحه، فجأة، كده لقيتهم مسكوا في بابا ويضربوه. وبعدين كده لقيت نفسي أنا ماشي أنا وواحد طالعين في طريق كده عالي، وبعد ما حودت ناحية إيدي الشمال مر عليّ شخص راكب حصان. أنا حسيت حساب إنه يقول لي أقف وييجي لي. وفعلاً استوقفتني ونزل عن الحصان. كلمني بعض كلام لكن مش فاكراه يعني. وبعدين بالرشاش وأطلق عليّ النار في بطني. بطني بقت تمغص على أثر إطلاق النار. في الفترة دي لقيت خالي واقف جنبي، وبابا واقف قصاد مني، يعني تقريباً على بعد عشرة متر أو أكثر شوية. بس.

س ١: وانت في الحلم ده كنت حاسس انك كيف؟

ج ١: لا.

س ٢: مكان الحلم ده كان فين؟

ج ٢: في البلد عندنا (يقصد الخليل بالضفة الغربية).

س ٣: إيه الحواس اللي انت اعتمدت عليها في معرفة انك مع بابا

وجدك ووسط جماعة.

ج ٣: البصر، العيون.

س ٤: قصدك إنك كنت مبصر في الحلم؟

ج ٤: أيوه.

س ٥: تماماً يعني؟

ج ٥: تماماً.

تعليق:

هذا حلم رواه الحالِم للباحث بعد حوالي شهر من رؤيته له. ونلمس فيه الدور الأساسي والسائد الذي يلعبه الإدراك البصري في إدراكات محتواه، على الرغم من أن الحالِم مكفوف البصر تماماً منذ حوالي ستين. وهذا هو

نفس ما وجدناه في حلمي المكفوف السابق، ويؤيد ما سبق أن ذهبنا إليه في تعليقنا على هذين الحلمين.

الحلم الحادي عشر:

شفت نفسي كنت نائم على السرير وفجأة صحيت فتحت عينيه بابص كده يظهر كانت عريية بتحر في الشارع والنور بتاع السيارة قايد ومعكوس على السقف مع وجود خيال القفص الحديدي بتاع الشباك على السقف. فأنا استغربت كده وقلت الحمد لله آدي أنا بشوف. فعلى طول قمت من السرير ووقفت على الشباك. ما اعرفش الفصل كان شتاء أو صيف، لكن شمس مائش، وكده زي مغيمة أو ضباب أو حاجة زي كده، وشفت واحد باعرفه اسمه عبد الرحمن، فقلت أقول له علشان يقول لأهلي إني أنا بقيت أشوف، وبعدين قلت لا بلاش، لما أروح أنا أقول لهم. ونزلت على الشباك شفت قصادي واحد باعرفه وأنا مبصر اسمه رشاد، ومعه شخص ثاني اسمه حسين عرفته بعد فقد بصري. فكنت عاوز أنده لهم علشان أقول لهم إني أنا بقيت أشوف. فجأة لقيت نفسي وقعت في ركن الأودة، وأصبت بالذهول، يعني بقيت أترعش، وحاجات زي كده وبعدها صحيت من النوم على أثر الغضة دي.

س ١: تقدر تقول لي الحواس اللي اعتمدت عليها في هذا الحلم ومعرفة اللي فيه؟

ج ١: برضه البصر، العيون.

س ٢: إيه اللي عرفك ان اللي كان مع رشاد هو حسين؟

ج ٢: أنا لما أقابل شخص بعد ما فقدت بصري باتخيله في مخيلتي، يعني أرسوم له هيكل خاص أو خلقة خاصة. طبيعي الشخص ده اتخيلته في مخيلتي. ولما كنت أمشي معاه عرفته إن هو قصير ونحيف، من مشي معاه عرفته انه قصير ونحيف. فلما شفته في الحلم بعنيه شفته إنه قصير ونحيف وحسب الخلقة اللي رسمتها مخيلتي له.

س ٣: تقدر توصف لي الخلقة اللي رسمتها في خيالك عنه زي ما تكون بتوصف واحد تعرفه من أيام ما كنت مبصر.

جـ ٣ : عينية صغيرة (ضبيقة) (س : اعتراض : ومنين عرفت كده؟ جـ :
ممکن يكون لصغر حجمه)، شعره خروبي كده علي (س : اعتراض :
عرفت ازاي ان شعره خروبي؟ جـ : ما أقدرش أعرف لها تفسير لكن أنا كده
متخيله يعني) أبيض الخلقه (س : اعتراض : ايش عرفك انه أبيض؟ جـ :
عشان الصفة السايده عندنا البياض).

س ٤ : إيه ثاني؟

جـ ٤ : ما أعتقدش، بس .

س ٥ : مش ممكن تكون الناس وصفته لك؟

جـ ٥ : لا، ما حدش وصفه لي . أنا طبعي أي شخص بأخيله في
مخيلتي، على أساس بارتاح نفسياً، وما أشعرش اني أنا كفيف يعني .

س ٦ : يا ترى إيه خلاك تحلم الحلم ده تفتكر؟

جـ ٦ : شدة تفكيري بالبصر، يعني بالعيون، وتلهفي لرجوع البصر .

تعليق :

هذا حلم رواه الحالم بعد أن طلبت منه أن يروي لي حلماً يظهر فيه
موضوع ما أو شخص ما يكون الحالم قد تعرف عليه بعد فقدده لبصره (لأرى
كيف يصور الحالم هذا الموضوع أو الشخص وأي الحواس يستعين بها في
إدراكه) . وهو حلم رآه الحالم قبل روايته بحوالي سنة، أي بعد كف بصره
بسنة تقريباً، وكان وقتها يعيش في رام الله بالضفة الغربية .

ويتضح جلياً من هذا الحلم الدور الأساسي السائد للإدراك البصري،
كما أتضح في الحلم السابق له والحلمين الأسبقين لزميله مكفوف البصر
متأخراً . بل زاد هذا الحلم عن الأحلام الثلاثة السابقة تأكيداً على قضية
الإدراك البصري بحيث جعلها محوره الأساسي، وبالغ الحلم هنا في دقة
الإدراك البصري والتركيز عليه، فالحالم في حلمه يصحو ويفتح عينيه

و«بص» فيرى نور السيارة مضاءً «ومعكوس على السقف مع وجود خيال القفص الحديدي بتاع الشباك على السقف. فأنا استغربت كده وقلت الحمد لله أدى أنا بأشوف... وشفّت واحد باعرفه اسمه عبد الرحمن فقلت أقول له علشان يقول لأهلي إني أنا بقيت أشوف».

كما اتضح لنا أيضاً في هذا الحلم كيف يعمد مكفوف البصر متأخراً إلى رسم صورة بصرية للأشخاص والموضوعات التي لم يبصرها من قبل عن طريق تخيلاته الخاصة. ويعبر عن هذا بقوله: «فلما شفّته في الحلم بعينه شفّته إنه قصير ونحيف وحسب الخلقة اللي رسمتها مخيلتي له... أنا طبعي أي شخص بأتخيله في مخيلتي، على أساس بارتاح نفسيًا، وما أشعرش أنني أنا كفيف يعني». وهذه الظاهرة سبق أن وجدناها في الحلم الثامن لحالة كف البصر المتأخر السابقة (صورة الخطيبة). وهكذا يصدق ما ذهبنا إليه في تعليقتنا على حلمي الحالة السابقة على حلمي هذه الحالة.

نتائج البحث وخلاصته

من استعراضنا للأحد عشر حلماً السابقة وما تلاها من تعليقات يمكننا أن نخرج بالنتائج العامة التالية:

أولاً: من حيث المبدأ، فإنّ المكفوفين يحلمون - كغيرهم - أثناء النوم.

ثانياً: المبادئ العلمية المعروفة عن أحلام المبصرين ودينامياتها تصدق بنفس الدرجة على أحلام المكفوفين. وأولها ما هو معروف من أن الحلم تحقيق رغبة. وتكفي النظرة السطحية إلى بعض الأحلام التي أوردناها لمعرفة الرغبة التي يحققها الحلم لصاحبه، كما في الحلم الثالث والثامن والتاسع والحادي عشر، أمّا البعض الآخر فيحتاج إلى نظرة أعمق وتمداعيات أطول للكشف عن الرغبات التي يحققها، كما أنّ تأثير بقايا اليوم السابق على صياغة أحلام المبصرين واضح هنا أيضاً بنفس الدرجة في أحلام المكفوفين.

ثالثاً: استكمالاً للبند السابق، فإن ما هو معروف من كون الأحلام على أنانية مطلقة^(١) Absolutely Egoistic بمعنى أن كلاً منها يدور حول المحالم نفسه - ينطبق بنفس الدرجة على جميع أحلام المكفوفين التي أوردها إذ تدور كلها حول دوافع المحالمين الخاصة ومشاعرهم واهتماماتهم وخبراتهم.

رابعاً: أحلام مكفوفي البصر متأخراً، والذين لم تصب لديهم مراكز الإبصار في المخ بسوء، يحتل فيها الإدراك البصري مركز السيادة بين أنواع المدركات الأخرى، بحيث لا يكاد يختلف الأمر عن الحال في أحلام المبصرين العاديين، فكانوا يعبرون تلقائياً عن أنهم كانوا يرون في أحلامهم وكأنهم مبصرون تماماً.

خامساً: مكفوفو البصر متأخراً، والذين لم تصب لديهم مراكز الإبصار في المخ بسوء، يحاولون رسم صورة بصرية للموضوع أو الشخص الذي يتعرفون عليه بعد كف بصرهم، مستوحاة من تخيلات المكفوفين الخاصة وأحاسيسهم المختلفة ومن أوضاع المبصرين لهم. ومن ثم فإنهم يرون هذه الموضوعات وهؤلاء الأشخاص في أحلامهم على نفس الصور البصرية التي رسموها لهم في حياة اليقظة. ومن الملاحظ أن هذه الظاهرة تحدث أيضاً لدى المبصرين بنفس الكيفية. فالكثير منهم يرى صوراً بصرية لموضوعات أو أشخاص لم تسبق له رؤيتهم (كرؤية الأنبياء والرسل في الأحلام). وهكذا يمكن القول إن أحلام مكفوفي البصر متأخراً، والذين لم تصب لديهم مراكز الإبصار في المخ، تشبه تماماً أحلام المبصرين العاديين بهذا الخصوص، حيث تكون إحدى عمليات إخراج الحلم الأساسية هي تحويل أفكار الحلم إلى صورة بصرية.

سادساً: مكفوفو البصر مبكراً منذ الشهور الأولى لميلادهم يدركون في أحلامهم باستخدام نفس الحواس التي يدركون بها في يقظتهم. فهم في

(١) المرجع السابق لفرويد عن تفسير الأحلام ص ٢٣٣.

يقظتهم يعتمدون في إدراكهم اعتماداً أساسياً على حواس السمع واللمس والضغط والقدرة على الإدراك (أو التوجه) المكاني Spatial Orientation وكذا أيضاً في أحلامهم. هذا بطبيعة الحال إلى جانب حواس أخرى مختلفة أقل أهمية، وإن كانت تساعد على استكمال عملية الإدراك. ونظراً للأهمية البالغة للإدراك البصري في التعرف على الموضوعات، والتي حرم منها مكفوف البصر مبكراً، ونظراً لحاجته إلى الاعتماد الأكثر على بقية الحواس والقدرات. التي تساعد في عملية الإدراك حتى يعوض نقص الإدراك لافتقار الإبصار، نقول نظراً لذلك كله، تقوى بقية الحواس والقدرات المساعدة على الإدراك لتعويض نقص الإبصار، بسبب قوة الدافع لذلك من جانب، وبسبب تدريبها واستخدامها المستمر من جانب آخر.

سابعاً: لو قارنا بين حاسة السمع ووزن دورها في إدراك محتوى أحلام مكفوفي البصر المبكر وبين غيرها من الحواس والقدرات لوجدنا السيادة التي تكاد تكون مطلقة لحاسة السمع، بحيث يمكن أن نقرر أنها تحتل نفس مكانة الإبصار في أحلام المبصرين. ففي كل أحلام مكفوفي البصر المبكر التي أوردناها (الأحلام السبعة الأولى) لم يخفف دور السمع في أي منها، بل كان على الدوام دوراً أساسياً. هذا بينما كادت في بعض الأحلام تختفي أدوار اللمس أو الضغط أو التوجه المكاني أو غير ذلك من بقية الحواس والقدرات المساعدة على الإدراك. بل وجدنا ما هو أكثر من ذلك، حيث وجدنا في الحلم الأول أن السمع قام بتصحيح إدراك الحالم الذي خدعه اللمس. وحيث أدرك الحالم في الحلم السادس عرض قدم موضوع حلمه من مجرد سماعه للصوت الضخم لمشيته.

وقد ترجع أهمية وجسامة وسيادة دور السمع في أحلام مكفوفي البصر المبكر (وعلى الأرجح أيضاً مكفوفي البصر المتأخر الذي أصيبت فيه مراكز الإبصار في المخ بحيث فقدت قدرتها على أداء وظيفتها) إلى ما لحاسة السمع من مزايا في عمليات الإدراك سواء في اليقظة أو الحلم إذا ما قارناها

بغيرها من الحواس والقدرات المسهمة في الإدراك باستثناء الإبصار بطبيعة الحال. وقد يكون أهم هذه المزاييا.

١ - اتساع دائرة المدركات السمعية، مثلاً يمكنك إدراك قدوم صديقك فلان من مجرد سماع صوته. وهذا أمر يوسع من دائرة مدركات الكفيف، ولا شك أن هذه ميزة يفتقدها الإحساس اللمسي، إذ إن دائرة مدركاته محدودة للغاية، حيث لا تتجاوز ما تصل إليه يد الإنسان أو يلامس أجزاء جسمه، وكذا الأمر بالنسبة للإحساس بالضغط أو التدوق مثلاً.

٢ - سرعة الإدراك السمعي وسهولته وأمانه، إذ تدرك الأصوات الصادرة عن المنبهات الخارجية دون انقضاء فترة طويلة على صدورها. ودون بذل جهد كبير في هذا الإدراك، ودون التعرض لأضرار. ويكفي أن نقارن السمع باللمس أو التدوق أو الضغط لتبين صحة هذا الاستنتاج. فعلى سبيل المثال فقط، يلزم للإدراك اللمسي وقت كاف لكي يقترب الإنسان فيزيقياً من موضوع الإدراك، كما يلزم الجهد اللازم لهذا الاقتراب ولمد اليد وتمريها على موضوع الإدراك كله. كما أن اللمس قد يعرض الإنسان لخطورة كالحريق أو الالتهاب أو التسمم... إلخ.

٣ - الإدراك السمعي أكفأ وأدق كثيراً، فعلى سبيل المثال، إذ استثنينا الإبصار، فإنه لا توجد أية حاسة تمكنا من التعرف على صديق ما سوى حاسة السمع، إذ نسمع صوته فنقول هذا فلان من قبل أن نراه. ولعل الحلم الأول يوضح هذه الحقيقة بما لا يقبل الشك حيث ظلّ الحالم مخدوعاً في موضوع حلمه حتى نطق فإذا بالحالم يكتشف حقيقة عن طريق سماعه لصوته.

٤ - إذا استثنينا المدركات البصرية، فإن المدركات السمعية أكثر تنوعاً وأكثر تمايزاً وأكثر عدداً، مما يعطي الحلم مفردات متميزة أكثر عدداً من الصور السمعية فيتيح له مرونة أكثر ودقة في تصوير الأفكار. فعلى سبيل المثال فقط نجد أنه بقدر ما لنا من أصدقاء، فإن لكل منهم صوته المميز.

٥ - لقد بلغ من وزن السمع وأهميته لعملية الإدراك أن الإنسان طول يقظته يظل مستخدماً حاسة السمع في إدراكاته. حتى في الحالات التي لا تستثار فيها حاسة السمع (حالات الهدوء التام) يدرك الإنسان بفضلها الشيء الكثير، كأن يكون الكلب نياماً، أو أننا وقت الفجر... بل إن الإنسان لو تعمد للحظات أن يكف حاسة السمع لوجد صعوبة بالغة في ذلك، بعكس الأمر في بقية الحواس الأخرى، حتى الإبصار، إذ يمكن للإنسان أن يعتمد إلى كفاية هذه الحاسة فيغمض عينيه أثناء يقظته. ويستتبع هذا أن حاسة السمع تحتل المكان الثاني مباشرة في عملية الإدراك لدى المبصرين من حيث الأهمية (بعد حاسة الإبصار)، وبالتالي فهي تحتل المكان الأول لدى المكفوفين. ويكفي أن نذكر أن أبرز ما يميز الإنسان على الحيوان وهو اللغة بكل ما لها من أهمية في بناء الحضارة ونقلها عبر الأجيال يستحيل تعلمها إلا باستخدام حاسة السمع.

ثامناً: ينبنى على كل ما ذكرناه في البند السابق من ميزات السمع أن يكون لحاسة السمع من الكفاءة ما يجعلها تحتل دور الإبصار في أحلام المكفوفين مبكراً (وعلى الأرجح أيضاً أحلام مكفوفي البصر المتأخر الذي أصيبت فيه مراكز الإبصار في المخ بحيث فقدت قدرتها على أداء وظيفتها) بكل جدارة. وهذا ما وجدناه فعلاً في أحلام المكفوفين مبكراً، حيث قامت الصور السمعية بالدور الأساسي في صياغة أحلامهم، الأمر الذي قد يسمح لنا أن نقفز إلى استنتاج أكثر جرأة عن أحلامهم فنقول إن عملية إخراج الحلم لديهم تستخدم حيلة من نوع لا نألفه في أحلام المبصرين وهي التصوير السمعي لأفكار الحلم، أي ترجمة أفكار الحلم إلى مدركات سمعية، كمقابل لحيلة التصوير البصري التي تلجأ إليها عملية إخراج الحلم لدى المبصرين. وفي الحلم السادس أوضح مثل لعملية التصوير السمعي هذه إذ استخدم الحلم الصوت الضخم ليرجم فكرة عظمة الإله وقدرته، كما استخدم الضحك العالي ليرجم فكرة الخوف من غواية الشيطان للحالم، على نحو ما شرحنا في التعليق على هذا الحالم.

تاسعاً: قد يستعين المكفوف مبكراً بحاسة الإبصار في إدراكات الحالم، لكن الاستعانة هنا تكون بشكل غير مباشر عن طريق الاستعانة بشخص آخر مبصر، على نحو ما يحدث في اليقظة تماماً، إذ يستعين المكفوف على عبور الشارع بأحد المبصرين. ونجد هذه الظاهرة واضحة في الحلمين الثالث والسادس، مما يشير إلى إحساس المكفوفين بالدور الهام للإبصار في الإدراك.

عاشراً: إن عملية إخراج الحلم وصياغته لا تتخلى بسهولة عن حيلتها الأساسية المتمثلة في ترجمة أفكار الحلم إلى صور بصرية حتى في أحلام المكفوفين. فهي لا تسلم بهذا التخلي إلا في حالة واحدة فقط هي حالة كف البصر المبكر جداً، حيث لا يكون لدى المكفوف أية قدرة على التصور البصري. أما في حالات كف البصر المتأخر (باستثناء - كما نتوقع - حالات كف البصر المتأخر الناتجة عن تلف مراكز الإبصار في المخ)، فإن عملية إخراج الحلم وصياغته تظل متمسكة بترجمة أفكار الحلم إلى صور بصرية، حتى لو تطلب الأمر الاستعانة بصور بصرية لموضوعات أو أشخاص لم يسبق للمكفوف رؤيتهم حين كان مبصراً، على نحو ما حدث في الحلمين الثامن والحادي عشر. مما يؤكد صدق ما ذهب إليها المحللون النفسيون من نزعة الحلم الطاغية إلى الترجمة البصرية للأشياء والأفكار، حتى إن هذه الترجمة تعتبر أهم الحيل التي تلجأ إليها عملية إخراج الحلم وصياغته.

وأخيراً، فإني أخشى أن أكون قد تجاوزت في استنتاجي من هذا البحث تلك الحدود التي تسمح بها المادة التي جمعت كما أرجو أن تتاح بحوث أخرى - سواء لغيري أو لي - تسمح باختبار هذه الاستنتاجات مستقبلاً.

المراجع

- ١- سيجموند فرويد: تفسير الأحلام: ترجمة مصطفى صفوان ومراجعة مصطفى زيور- القاهرة- دار المعارف الطبعة الأولى .
- ٢- سيجموند فرويد: محاضرات تمهيدية في التحليل النفسي: ترجمة دكتور أحمد عزت راجح ومراجعة محمد فتحي - القاهرة- الأنجلو المصرية .
- ٣- دكتور فرج عبد القادر طه: دراسة مقارنة بين إدراك المحتوى الظاهر لأحلام المكفوفين والمبصرين - المجلة الاجتماعية القومية - عدد ٣ - ١٩٧٢ .
- ٤- دكتور يوسف مراد: مبادئ علم النفس العام: القاهرة- دار المعارف- ١٩٦٦ .

Taha, Farag Abdel Kadir; «Auditization» In Dream-Work Of The Ear-ly Blind Persons, XXIII International Congress Of Psychology, Acapulco, Mexico, September 1984.